عتبات النص الرحلي "كتاب الأيام (أسفار لا تخشى الخيال)" لشعيب حليفي.

د. عبد الحق منصور بوناب
جامعة 20 أوت 1955. سكيكدة ⋄ الجزائر

ملخص

يحيط شعيب حليفي نصه الرحلي " كتاب الأيام" بعتبات لغوية مهمة ، تضيف إلى الموضوع الرحلي صورا أدبية تجمع بين البعد الحقيقي والتخييلي للشيء الموصوف .في نص " كتاب الأيام (أسفار لاتخشى الخيال) " تبدأ العتبات للضية رحلتها بدءا بالعنوان إلى المقدمة ثم البداية فالهوامش الداخلية للنص ، إذ تعتبر هذه العناصر أدوات أساسية لبناء العمل الرحلي عند شعيب حليفي.

يعود اهتمام الكاتب بتدوين هذه العناصر البنائية لانشغاله الأكاديمي الدائم بأدب الرحلة ، لذلك لا يتوانى في تحويل الرحلة الجغرافية إلى نص سردي رحلي يقوم على عناصر تعمل على تنبيه المتلقي إلى غاية النص وظروف كتابته ومراحل تكوينه.

الكلمات المفتاحية: العتبات، النص الرحلي ، الصورة، هوية النصوص.

Abstract

The writer Chouaib Halifi surrounds his travel text entitled Kitab el Ayyem " Book of days" with different important linguistic thresholds that add to the subject of travel literary images which comprise the real and the literary dimensions of the described object. In the text of "The Book of days, the textual thresholds begin its journey with the title to the introduction, then moves to the start and the internal margins of text; these elements are considered essential tools for building the travelling work for Shouaib Halifi. The interest of the writer in these structural elements is due to his permanent academic concern with the travel literature. That is why he does not hesitate to transform the geographic travel into a narrative text based on different elements that alert the audience to the goal of the text, the circumstances of its writing and the stages of its creation.

Keywords: *thresholds, travel text, images, texts identity*

لقد نقلت شهرزاد الملك شهريار في ألف ليلة وليلة من بلاد إلى أخرى ، تصف له الطبيعة والمجتمع واللباس والشراب والإنسان والحيوان ، دون أن يتحرّك الملك من مكانه ، إنّ شهرزاد أسّست لمفهوم الرحلات اللغوية التي تختلف عن الرحلات الجغرافية الحقيقية من حيث أدبية رحلاتها ، الرحلات التخييلية التي تنتمي إلى الأدب الجغرافي ، لقد أثار أدب الرحلة اهتماما بالغا في الدراسات النقدية المعاصرة بسبب تلك " المميزات والخصائص المتعلقة بأسلوب الرحلة وبموضوعه الشمولي الفنّي بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة ، يمكننا اعتباره نمطا خاصا من أنماط القول الأدبي".[1]

إنّ تدوين الرحلات الواقعية يسلك طريقين يتعلق الأول بالسيرة الذاتية وتحديد ضمير المتكلم أساسا لبدء الحكاية فيكون الكاتب مسؤولا عن الحقائق المثبتة في النص كأسماء المواقع وتاريخ الأحداث ، والطريق الثاني يتعلّق بالتخييل كعنصر فاعل في تدوين الرحلة من حيث تغيّر العوالم الحقيقية الممكنة لحدوث الوقائع الرحلية ، والدخول في العوالم التخييلية الرمزية.

الرحلة الأدبية في بعدها الجغرافي تعتمد على الوصف ، لذلك فمدون الرحلة ليس كالمسافر المشاهد العابر للحقول الجغرافية إنّ المدوّن الكاتب يستعمل حقوله اللغوية الدلالية كي يستردّ بقايا مشاهدات الرحلة في زمنها أو بعد مراحل زمنية طويلة ، فإذا " اختفت العناصر الأدبية والذاتية أو ندرت ، صنف النص على أنّه جغرافية وصفية ، وإذا حاول الرّحال أن يوازن بين الموضوع والذات فهو أدب جغرافي ، أمّا إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فعمله يصنّف على أنّه أدب رحلة"[2].

1- عتبة العنوان :

يمثل العنوان " بطاقة النص التعريفية ، وهويته ، تغدو مساءلة "العنوان" في العمق من مقاربة النص السردي ، لكونه قانونا له (...) وفي واقع الحال ، إنّ ملازمة

العنوان للنص السردي ، لا يجعل من مقاربته في متناول القراءة ، بقدر ما تصبح مقاربة العنوان أمرا حيويا للإمساك بمكائد السرد ومراوغاته، فالكشف عن أسرار عنونته يعني كشفا لطرائقه في البنية والأسلوب وكيفيات التدليل لعلاماته"[3].

يأخذ عنوان الرحلة طابعا تعيينيا يحدّد مقام السفر إلى عوالم واقعية أو تخييلية ، وفي غالب الحالات يكون عنصر الإغراء واردا في العنوان الرحلي ، ففي عمل شعيب حليفي " كتاب الأيام (أسفار لا تخشى الخيال)" يأخذ العنوان قسمين ؛ قسم تعييني يحمل في طياته خبرا منقوصا عن رحلة مجهولة عبر الأيام، فالمركب الاسمي (كتاب الأيام) :(مبتدأ ومضاف إليه) يحتاج إلى خبر يعلم عن صفة "كتاب الأيام" من حيث قيمتها الزمنية والإنسانية عند القارئ حال تلقيه العنوان ، فكل " نصّ يسعى للتواصل الفني يطرح سؤال المرسل إليه، أي القطب الجمالي (القارئ) الذي يعوّل على تفاعله في ترهين جمالي محدّد للنّص. وهنا تتقدم النصوص الموازية، بمختلف أجناسها الخطابية، كعتبات تضع القارئ على طريق إنجاز ذلك إنّ ملامح المرسل إليه عادة ما تكون مستقرة ، كبنية ضمنية داخل النص نفسه، فتستنفر ضمن نشاط تأويلي في تعاضد مع النص الموازي ، لإنجاز ترهينات يكشف معها النص انفتاحه الدلالي"[4].

يضع الكاتب عنوانا إضافيا يبدّد غموض العنوان الرسمي"كتاب الأيام" ويضعه في مصاف الأدب الرحلي مباشرة ، ويصبح الكتاب عبارة عن " أسفار " متنوعة ، والسفر هو الانتقال من مكان إلى آخر عبر الصيغة الزمنية (الأيام) ، وقد يكون السفر حقيقيا يتعلّق بتغير الأماكن الجغرافية الطبيعية ، وقد يكون تخييليا لأنّه يتجاوز المساحة الزمنية التي عاشها الكاتب ،إذا اعتبرنا " كتاب الأيام " جزءا من السيرة الذاتية الواقعية للمؤلف. يفصل شعيب حليفي في فك هذه الإشكالية بجعل صفة الأسفار مرتبطة بالجملة الفعلية (لا تخشى الخيال) ، فالأسفار لا تحدّد التعيين الأجناسي للكتاب بوصفه نصّا رحليا كأن توضع لفظة أسفار في أسفل الغلاف منفردة ، بل يكتمل معناها في جملة (أسفار لاتخشى الخيال) ليظهر الطابع التخييلي الجمالي للنص منذ الوهلة الأولى لقراءة

العنوان الذي يحمل في لغته المقوّم الزماني المتمثل في لفظة الأيّام ، والمقوم الأجناسي في كلمة أسفار ، والمقوم التخييلي الصريح في جملة لا تخشى الخيال .

لا يوجد تعيين أجناسي للكتاب على صفحة الغلاف بوصفه قصة أو رواية أو مسرحية ، بل يوجد داخل العنوان " كتاب الأيام " ما يدل على أنه نص رحلي أو رحلة ، فالأيام صفة زمنية دالة على سرد ذكريات سابقة ، كما يوجد تعيين آخر داخل العنوان الثانوي (أسفار لاتخشى الخيال) يتعلق بفكرة السفر كدلالة على الكتابة الرحلية المرتبطة بالتخييل ممّا ينفي عن كتاب الأيام صفة التدوين الخاص بالسيرة الذاتية.

2-عتبة التصدير :

يضع شعيب حليفي في بداية كتابه تصديرين رحليين مهمين يظهران أهمية الكتابة الرحلية عند الكاتب مؤلف النص ، جاء التصدير الأول ذاتيا على شكل تصريح من الكاتب حول المفهوم الفلسفي للرحلة عنده.

" بويا..الطريق لا تكون طريقا حتى تكون بلا نهاية . وتلك طريقي"[5]،إنّ شعيب حليفي يؤمن بقدرية الرحلة ، فهي قدره الأزلي ، الذي يتبعه إلى نهاية العمر ، لذلك فنصائح الأب "بويا" بإيقاف المدّ الرحلي لا تنفع الابن شعيب ولا تغير من عشقه للسفر، وهنا وضع التصدير البدئي/ الأولي " لتنشيط أفق انتظار القارئ ، بربط هذا التصدير بالنص المنخرط فيه قراءة"[6].

جاء التصدير الثاني غيريا للكاتب والرّحالة الكولمبي "لويس كاردوزا" يقول فيه : " السفر بالنسبة إليّ بمثابة انفجار فكري وعاطفي(...) ودنئ أن تسافر من أجل أن تكتب فقط".يربط صاحب القول بين السفر والكتابة ، كلاهما قطعة من العذاب، سواء السفر الجغرافي أم السفر الكتابي ، فالمسافر يتلقّى شتّى صنوف الإبداع الإنساني عبر رحلته ، وقد يفتقد موهبة الكتابة ليعبّر عن ذلك ، فتكون المتعة زائلة لأنّها لم تدوّن في نصّ رحلي شاهد على التاريخ والمكان والعادات والتقاليد ،كما أن" الكتابة أثناء الرحلة تتضمن

وصفا حارا صادقا ، ولكنّه انفعالي غير متأمل وبذلك يفقد صفة العمق التي لابد من توافرها في كلّ عمل أدبي"[7].

الشق الثاني من التصدير (دنئ أن تسافر من أجل أن تكتب فقط)، يجعل الكتابة الرحلية منفصلة عن السفر الواقعي الذي يتطلب الجهد البدني، الكتابة جهد فكري يأخذ الكاتب إلى مفازات ومتاهات مجردة غير مرئية ، إنّها العلاقة بين فعل الكتابة الرحلية والتخييل. وهذا مرام النص الذي قدّمه شعيب حليفي لقرّائه، إذ يشتغل الحلم الظاهراتي على مدى صفحات الرحلات الحقيقية التي قادته إلى طرابلس الليبية ، والقاهرة والبقاع المقدسة وتونس دون أن تكثيف اللغة الوصفية الخاصة بجغرافيا هذه المدن كما فعل الرحالة في العصور القديمة حيث " وصف الرحالة الطرق التي سلكوها في رحلاتهم ، بدءا من مركز الابتداء إلى محطة الانتهاء ، فكان منهم من اقتصر على ذكر المنازل المختلفة في الطريق ، والمسافة بين كل منزلتين متعاقبتين ، وحال المياه الموجودة في هذه المنازل لشدّة الحاجة إليها، أو فعل ذلك في بعض مراحل رحلته ، على حين أطال بل استطرد إلى أشياء أخرى في غيرها"[8].

3- مقدمة النص الرحلي:

يجعل حليفي العنوان الإضافي للكتاب " أسفار لا تخشى الخيال" عنوانا لتقديم ذاتي يضعه على الصفحة الأولى لبداية رحلاته إذ يشرح أسباب الكتابة ودوافع البحث عن تدوين المشاهدات الفعلية لهذه المدن العربية التي زارها في مراحل متعدّدة ، كما أنّه يسمح لذاته النقدية بتقييم الكتاب قائلا في بداية الكلام "كتاب الأيام.. هو خلاصة إبداعية جمعت بين السفر والكتابة لتنتج نصا ثقافيا واحدا من فصول ومرايا تسمّى: طرابلس والرّقة والرياض وقطر وتونس ، تعكس في ضوء شموس التخييل حالات المسافر والكاتب، ما أرى وما أريد رؤيته وجلّ ما يختمر بوجداني قبل ذاكرتي ، وما أحبّ كتابته... فأدوّن كلّ ذلك بلغتي وصوتي قريبا من نفسي ومن الأمكنة بما تحمله وتخفيه "[9].

في غالب الأحيان يقوم كاتب غيري بوضع تقديم للكتاب ، ويكون النصّ مشحونا دلاليا بصور تدعّم المسار الإبداعي لصاحب النّص ، فالتقديم بطاقة إشهارية

للكتاب، تساعد المتلقّي على تقبّل العمل والإقبال على قراءته ، خاصّة إذا كان صاحب التقديم شخصية بارزة من رجال الفكر والأدب، إلا أنّ شعيب حليفي اختار التقديم لكتابه ليعبّر من خلال هذه البطاقة التعريفية لنصّه الرحلي عن طرائق التعبير الذاتي الممكنة التي يتيحها السفر للمبدع ، يقول حليفي:" كثيرا ما تساءلت عمن أكون خلف هذا النص.. وقبله من أكون في تلك الرحلات ؟

المسافر الملتقط لكلّ مدهش يملأ به جرابه ، أم الكاتب الذي يجرّب الوقوف على حافّة العين المفتوحة ؟ يطرّز، على مآقيها، حرّيته بمداد التخييل"[10]

لقد قام شعيب حليفي بتقديم عمله الرحلي بنفسه لأنّ " دور التقديم الأول هو تدشين للنص"Ouverture". وكل تدشين يعني بالضرورة التعريف بهذا النص ، من حيث هو ميثاق تواصلي من نوع خاص ، يتم التوقيع عليه بين الكاتب والقارئ. هذا الميثاق الضمني تحدّد بنوده كيفيات تلقّي النص الأدبي والتعامل معه في مستويي القراءة والتأويل. ولهذا تصبح عملية القراءة مشروطة بإدراج المتلقي ، بطريقة غير مباشرة، في النسق المعرفي العام للكتاب، الذي تشكل المقدمة أحد مداخله الأساسية"[11].

4-العناوين الداخلية:

قسّم شعيب حليفي نصّه الرحلي " كتاب الأيام " إلى ثمانية فصول ، كل فصل يمثّل قصّة رحلية لبلد عربي زاره في إطار رحلات علمية تتعلق بالمشاركة في مؤتمرات وندوات دولية ، فمؤشّر الرحلة لم يكن ذو طابع سياحي ترفيهي ، بقدر ما كان التزاما معرفيا يدخل في مجال النشاطات الأكاديمية للأستاذ الجامعي ، ولما كان الأمر متعلقا بتاريخ محدد لكل رحلة يتزامن مع موعد انعقاد المؤتمرات في الدول العربية المتّجه إليها ، أسفرت ضغوطات السفر العلمي عن نتاج حكائي ، يدون المشاهدات الفعلية والتخييلية التي مرّ بها المسافر، و شعيب حليفي لا يختلف عن غالبية الرحالة المؤلفين الذين " كانوا كتابا قبل كل شيء، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي. يستندون به إلى الواقع أحيانا ويجنحون إلى الخيال أحيانا أخرى ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان "[12].

يظهر تنوع العناوين الداخلية للرحلات وانقسامها إلى شقين عناوين تعيينية وأخرى جمالية من خلال هذا الجدول :

عنوان الرحلة	العناوين الداخلية
كازابلانكا- تريبولي/ ذهاب وإياب	مقدمة العقد- أقول ما قاله في خاطره- ويضيع من قدمي الطريق- أنا حر في تريبولي- قاتل وعابد ومذنب- سيد العزيز يغني- لا تفزع مني، فلست بثائر- أين الغربال ، لأرى ما أريد- موسيقى.
غابة النصر(في طرابلس مرة أخرى)	الرحلة الرابعة- ثلاثة/ خمسة- عودة إلى جنة النصر- سمدونة تعترف- رسائل سيد العزيز- بروق العابدة في جنتها- مرة أخرى.
زمن القاهرة	العودة فجرا- يوم السفر إلى القاهرة- في كل حياة شيء يستحق الانتباه- زمن جميل..يهرول منا- حكاية لتسلية المسافر- النيل يجري فوق دهشتنا- حكاية لتسلية المسافر- الكرسي- نشيد ثوري في شارع الهرم- ماذا جرى في تلك الساعة الأندلسية؟- أبواب الحياة- حكاية لتسلية المسافر- اكتشاف مخابئ الحكاية- حكاية لتسلية المسافر- أكتب لنفي التأويل.
على أبواب القاهرة	مثل طمي خلاّق- أيام قاهرية- زمن السلطان الغوري- خارج المسرح- مثل نهر شارد- حكاية لتسلية المسافر.
العبور إلى الشام	حدوس ساخنة- ظلام فوق السحاب- حكاية لتسلية المسافر- من أكون؟ قرب النهر- حكاية لتسلية المسافر- العشاء الأخير- ما زلت أسأل من أكون؟- حكاية لتسلية المسافر- عبور أخير.
رحلتي المقدسة	أبشر.. يا صاحبي- من- ابتهالات شافية- أنا وثابت بن أوس العدواني- تاسع عشر مارس- في ضيافة الملك- أنا والفجر ونوار اللوز.
رحلات البحث عن الحاج سليمان	أنا ابن السماء- غيمة الشنفرى في الباحة- قال سليمان الغزواني- شرق الأرض- قال حامد بركات- ثرثرة في حي المغاربة- رحلة

الغزواني	الرياح - آخر الأتباع.
نوايا المسافر إلى قرطاج	قوس قرطاج - حكماء قرطاج - قابس..لا تتعجلي وأنت أمامي - القيروان عتبات الذهول - من وراء الحجب.. لوحت بيدي - حكاية لتسلية المسافر – برشة برشة.. يا تاكابي - عتاقة الزعفران – وقوف ليس كمثله.

تعتبر العناوين الفرعية لكل فصل بمثابة محطات مضيئة تميز كل رحلة عن الأخرى ، كما أنّها ليست عناوين تعيينية تدل على الحدث مباشرة ، بل هي عناوين بلاغية تنقل القارئ من أرض الواقع الجغرافي إلى جمالية الصورة الأدبية التي تتركها آثار الرحلة على الكاتب ، فيصبح العنوان الفرعي عنوانا لقصّة رحلية قصيرة تدلّ على ذاتها ، ففي أولى الرحلات المدونة في كتاب الأيام المعنونة بـ (كازابلانكا - تريبولي" ذهاب وإياب") يفتتح شعيب حليفي نصّه بعنوان " مقدّمة العقد" وهو عقد العزم على تدوين الرحلات ويصرّح بذلك قائلا : "وقد انجذبت إلى رغبتي في الكتابة ، بتقييد هذه الرحلة ، بعدما انتهيت - قبل ثلاثة أشهر خلت - من كتابة آخر حلقة من اليوميات ، والتي كنت أدوّنها في نهاية كل شهر خلال عام كامل ، فشعرت بالرغبة في كتابة شيء آخر له علاقة بما هو ثقافي ، يعكس مشاهداتي برؤية مفتوحة. وهكذا ، عقدت العزم والحزم ، وفي يقيني تدوين" نص رحلي" يأخذ شكل رحلة مروّضة..أكتبها بروح روائية "[13].أليست الكتابة مغامرة كما يقول رولان بارت ؟ إنّها رحلة تخييلية بامتياز تخلّد الوقائع المرئية وتبعث روح السرد في لغة المؤلّف و" ضمن البنية النمطية ذات الشكل المفتوح أو ذات الشكل المغلق تتولد البنية المحورية وتستند إلى تحديد محاور بعينها ، يحدّدها الشخص الرّحال وتخصّصه العلمي"[14].

عناوين الرحلة الأولى جاءت على صيغتين : جمل فعلية وأخرى اسمية ، توخّى فيها مدوّن الرحلة الدلالة المباشرة على وقائع معينة تدخل في مجال سيرته الذاتية ، إذ تظهر الأسماء والأفعال في صورة دينامية فعّالة ، تنتمي إلى حاضر السرد وهي على التوالي

:(أقول ما قاله في خاطره- ويضيع من قدمي الطريق -أنا حر في تريبولي- قاتل وعابد ومذنب- سيد العزيز يغنّي- لا تفزع مني فإني لست بثائر -أين الغربال لأرى ما أريد؟ -موسيقى). كل العناوين تدل على حكايات رحلية حقيقية عاشها شعيب حليفي بطرابلس الليبية أثناء مشاركته في مؤتمر دولي إذ يورد تواريخ الرحلة بدءا من المغرب إلى ليبيا:"في الساعة الحادية عشر والربع صباحا، ركبت القطار من محطة الوازيس في اتجاه مطار محمد الخامس. وبعد أربعين دقيقة، وصلته لأشرع في إجراءات السفر الأساسية، وكان من المفروض أن تقلع الطائرة في الواحدة ظهرا، لكنها تأخرت بأربعين دقيقة"[15].

في بعض المقاطع السردية يدقّق الكاتب مواقيت الرحلة حتّى تكون شاهدة على مرحلة زمنية من مراحل عمره مرّت ولن تعود بالتفاصيل ذاتها" هبطت بنا الطائرة بمطار طرابلس العالمي في الساعة4:25 بالتوقيت المغربي (التوقيت الليبي المحلي يزيد بساعة عن توقيتنا).استقبلونا بحفاوة كبيرة ثمّ ركبنا الحافلة المخصّصة لنا والتي ستقلّنا إلى فندق باب البحر حيث آويت مباشرة إلى غرفتي بالطابق الخامس، غرفة رقم523"[16].

يورد حليفي داخل عنوان" قاتل وعابد ومذنب "قصّة تخييلية رواها له سعيد يقطين أثناء مجالسته له على مقعد حافلة ليبية كانت تقلهم إلى قاعة الندوات، والقصة عن رجل فقير " قرر الرحيل دون أن يخبر أحدا باحثا عن الله ليسأله تغيير حاله من الفقر إلى الغنى"[17].والقصّة تجيب عن عنوانها الذي يطلب الرحيل من مكان إلى آخر وتحمل مشاق السفر. أورد الكاتب مجموعة من الأغاني تدل على العنوانين مباشرة" سيد العزيز يغني ،موسيقى".

تشكّل العناوين الداخلية عتبة إغرائية يقف عندها القارئ متلمسا معاني النص الرحلي فهي بمثابة إحداثيات لغوية تحدّد المسار الإبداعي للرحلة الأدبية حيث تتحول مظاهر الطبيعة والمجتمع إلى وقفات وصفية آنية. كما هو الحال في الرحلة الثانية (غابة النصر " في طرابلس مرة أخرى") حيث يصف الكاتب هذه الغابة ليدل على العنوان مباشرة "نزلنا بفندق غابة النصر، ريكسوس؛ وهو من أفخم الفنادق ؛ جنّة صغرى، وسط غابة فسيحة بمساحات خضراء طبيعية هادئة. مكان شعرنا فيه بدهشة منعشة

،أعقبتها راحة كبيرة ، فضلا عن إحساس عجيب بأنّ كل من كان يشكو من ألم.. تشافى منذ اليوم الأول، فيما اعتقد الجميع بأنّ مردّ ذلك راجع إلى الفندق، ذي التصنيف العالي ، بخدماته وتواجده وسط الغابة. غير تخميني حينما خطر لي خاطر بأنّ هذا الفضاء كان في القديم، مأوى للتعبّد، ومازالت به بركات أوليائه وقد صاروا ترابا "[18].عند تدوين هذه الرحلة الطرابلسية مرّت على الكاتب دوافع تخييلية لسرد رسائل شخصية وهمية عن" سيد عبد العزيز" مثلا.

5- عتبة الهامش:

تأتي الهوامش في " كتاب الأيام " كحواشي ضرورية للنص الرحلي حيث إنها تؤرّخ للحدث وتضعه في خانة الزمن الاسترجاعي الفعلي، فكل رحلة يضع لها المؤلف زمنها الحقيقي على هذه الصيغة : طرابلس (تاريخ الرحلة 22-25 يونيو 2009) ، القاهرة (تاريخ الرحلة 1-6 نونبر2009) ، الشام (زمن الرحلة 5-10 ديسمبر2009) ، وأحيانا يؤرّخ الكاتب لرحلاته السابقة فيذكر مثلا :" الرحلة السابقة لي إلى سوريا كانت إلى اللاذقية في الفترة ما بين 7 و11 نونبر 2005"[19]

إنّ التواريخ شاهدة على مرحلة زمنية معينة من تاريخ كل بلد زاره شعيب حليفي ، لذلك فالنص الرحلي بمثابة مذكرات شخصية تشبه عمل التقارير الصحفية عن وضعية بلد ما في تاريخ ما مثلما قام به المؤلف في وصف طرابلس وسوريا والقاهرة قبل ثورات الربيع العربي التي غيرت الملامح الجمالية لهذه الدول التي وصفها حليفي في مذكراته الرحلية ، لذلك فالترتيب الموضوعي "يقوم على اختيار موضوعات بعينها والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب... ويراعى في ذلك التسلسل الزمني والمكاني أو يهمل وقد يندرج تحت الموضوعات الأساسية موضوعات فرعية"[20].

جاءت هندسة الهوامش على شاكلة نص إضافي للمتن الحكائي جعلتها في مرتبة طباعية مشتركة معه ، حيث لا يوجد فاصل بصري يحدّد الهامش في أسفل الصفحة بل وضعت له مساحة على يسار النص المكتوب ، كالعمود التعليقي على صفحات الجرائد ، نظرا لأهميته في إيضاح بعض قضايا الرحلة اللافتة ، كتاريخ الرحلة وأسماء أعضاء الوفد

المرافق للكاتب حيث يشير إليهم بالاسم الكامل مثل قوله:" أسماء الوفد المغربي : إدريس الخوري ، أنيس الرافعي ، ربيعة ريحان ، شعيب حليفي ، عبد الحليم العلام ، عبد اللطيف محفوظ ، عبد العزيز الراشدي ، محمد التازي ، نجيب العوفي "[21].

كما يشتمل الهامش العمودي على إحالات معرفية مثل: " للمزيد من المعلومات عن السيد رابح الوادي. أنظر : شعيب حليفي : لا أحد يستطيع القفز فوق ظلّه (الاحتمالات العشر لكتابة رواية واحدة) الدار البيضاء. دار الثقافة. المغرب. ط1. 2010. صفحات 185-210"[22]. وهي بمثابة نص إشهاري ودعوة لقراءة أعمال شعيب حليفي الأخرى.

أفرد الكاتب لرحلة تونس هامشا أفقيا ذو حجم كبير مقارنة مع الرحلات الأخرى، أشار فيه إلى تاريخ مدينة القيروان والملكة "عليسة مؤسسة قرطاج أو ديدون وأسماء أخرى مشابهة لامرأة واحدة تحولت إلى أسطورة"[23].

ويورد قصتها التي تغطي أكثر من ثلثي الصفحة على شكل هامش أفقي كما سبق الذكر. كما خصّص هامشا أفقيا آخر لنص "أغنية الشمعة" للفنان الجزائري كمال مسعودي. إنّ الهوامش الإضافية للنّص الرحلي تنتمي إليه ولا تنفصل عن أجواء الحكي بل هي تثبت أنّ الرحلة " سفر واقعي أو متخيل يسمح بالسفر عبر المكان والأجناس والأنساق والكلمات، حوارا وتحويلا وتفسيرا. ولا شكّ أنّ هذه الوظيفة التي يمتلكها هذا الكون المركزي- مكون السفر- تقتضي وجوده وانتشاره عبر مراحل الرحلة مما يسمح باستيعاب مختلف المكونات الأخرى وإدماجها في سياق البنية المهيمنة ، بنية السفر أو الارتحال "[24].

6- موضوعات الرحلة :

وصف شعيب حليفي رحلاته إلى الدول العربية التي زارها في إطار عمل ثقافي وصفا ينطلق من بواعث سردية تنم عن كتابة رحلة روائية بصفة جمالية، وقد أعلن عن ذلك صراحة في تقديمه للكتاب ، لذلك فالأنا الإبداعية لشعيب حليفي كانت تتدخل

بين الفينة والأخرى لتعلن عن وجودها الضمني داخل السياقات الاجتماعية التي وصفها المؤلف الحقيقي المدوّن اسمه على صفحة غلاف الكتاب.

لقد أثبت شعيب حليفي من خلال نصّه أنّ درجات التخييل القصوى تتحكم في مراتب الوصف الواقعي للأماكن التي زارها وبالتالي فالحدود الفاصلة بين الرؤية البصرية والرؤية التخييلية تتداخل غير موجودة في نصّه الرحلي (كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ") حيث ينتقل من الوصف الواقعي للمكان إلى وصف جمالي يمتزج فيه الخيال بالتخييل الأدبي ففي رحلته إلى القاهرة يصف فجر المكان المصري ويقارنه بمكان ولادته " هكذا صرت أحبّ المقارنة التي تمدني بقوة خارقة (وهي بلدي الأول والأخير ، وكم تمنيت أن أكون حاكما مطلقا عليها ، أورّث عرشي من بعدي لسلالتي الطهرانية ، من الذكور والإناث) لها غروب خرافي شبيه بالدهشة الأزلية الرابضة في أرواحنا، أما القاهرة فلها فجر خرافي أيضا، لم أر أو أشاهد أو أبصر نظيرا له أبدا في حياتي ، فجر روحاني، كلما قام فيه وارتفع صوت الآذان الرخيم، إلا وأستحضر- اللحظة بكل الأزمنة السابقة وطبقاتها الذهبية العتيقة ، المخلوطة بأرواح الأجداد الذين راحوا.."[25].

ثمّ ينتقل مباشرة إلى سرد تاريخي يعود فيه إلى تأسيس القاهرة منذ القرن العاشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر ولا تستهلك رحلته الزمنية على الورق سوى صفحتين ينقل فيها القارئ حيث عبق التاريخ العربي: " تأسست القاهرة في القرن العاشر الميلادي ، خلال عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، على يد القائد جوهر الصقلي. مدينة مفتوحة على كل الثقافات وأبواب الحضارات الفرعونية والرومانية والإسلامية، ضمّت إليها بابليون والفسطاط والعسكر والقطائع ، ثمّ توسعت بين الأهرامات وجبل المقطم ومجرى النيل ، موقع التقاء الدلتا بالصعيد في عقدة الوادي"[26].

مباشرة بعد هذه الوقفات الوصفية التاريخية يضع الرحالة شعيب حليفي عنوانا مثيرا تكرر أكثر من مرة في كتاب الأيام يحمل هذه الصيغة (حكاية لتسلية المسافر) إنّ لهذه الجملة الاسمية حمولات رحلية تتعلق بالدعوة للحلم وأخذ قسط من الراحة داخل فضاء النص الرحلي ، إذ ينتقل شعيب حليفي من السرد الواقعي (وصف القاهرة) إلى

السرد التاريخي (وقائع حقيقية) إلى السرد التخييلي (الإمتاع والمؤانسة) حيث يروي للقارئ حكاية تخييلية عن حمّال له عربة يجرها حصان هرم مع زوجته وأولاده، إضافة إلى علاّل السمسار والفقيه الطيب والشيخ حمان كلهم "عاشوا في حب وهناء جماعي ، يحيون مثل عائلة واحدة، يأتمرون بصوت علال السمسار الذي مدّ الخان براديو ضخم يجلب لهم السعادة والنشاط ، ومن خلاله يستمعون إلى أفراح واحتفالات حاكم الجبل"[27].

يضع شعيب حليفي تقديما للقصة يدخل القارئ في أجواء عجائبية تضع أمام تلقي قصص تشبه حكايات ألف ليلة وليلة "في تلك الجزيرة التي هي عبارة عن جبل ينتمي إليه كل السكان ، في قمته الشامخة يوجد بيت الحاكم ، محاطا بعدد من قصور معاونيه من المدنيين والعسكريين ، أما ما تبقى من الجزيرة فهو السفح ، تسكنه عامة الناس الأصليين ، بالإضافة إلى المهاجرين الفارين من مناطق بعيدة إثر سنوات الجفاف. من هذا المكان توضحت لي -أنا الراوي- ملامح الجزء الأول .فالسفح كله عبارة عن حي شعبي كبير، به فندق أو خان ، تعود ملامحه إلى قرون خلت. بني على شكل دائري ذي وسعة غير مسقوفة في الوسط، يأوي العربات والحيوانات؛ وبه بئر للشرب "[28]. ولكن سرعان ما يخيب أفق انتظار القارئ عندما تختم القصة بعد صفحتين بقصيدة للشاعر أحمد فؤاد نجم، نظمها حمان أحد شخصيات القصة كقصيدة مدحية في عيد تولي الحاكم مقاليد الحكم، وقد جاءت القصيدة باللهجة المصرية ولشدّة إعجاب راوي حكاية تسلية المسافر بهذه القصيدة أراد أن يحولها إلى اللهجة الشاوية المغربية، وهذا ما يسمى بأثر المثاقفة التي تنشأ بين البلدان والأمم جراء تفاعل الرحالين مع الشعوب المختلفة لذلك فالرحلة " جنس أدبي مهجن تتفاعل فيه الأنظمة اللغوية واللهجية والصوتية بحوارية النصوص سواء كانت الحوارية مع رحلات سابقة أو أنماط خطابية أخرى معارضة أو اقتباسا أو تضمينا أو تحويلا"[29].

لقد أخذنا الرحلة إلى القاهرة كمثال حول جميع الرحلات التي قام بها إلى المدن والبلدان العربية (طرابلس ، الشام ، تونس) وقد اشتملت معظم الوحدات الحكائية لتدوين الرحلات على تهجين سردي بين مفصلي السرد الواقعي والسرد التخييلي ، ولعل

ما يلفت الانتباه هو تلك الوقفات الصوفية التي حلّت بالكاتب شعيب حليفي عند زيارته لبيت الله الحرام حيث تحول إلى مريد صوفي متعلق بالمكان ، يقول: " وصلت مكة قبل الفجر بوقت معلوم ، عبر رحلة معراجية من الرياض إلى جدّة، ثم برا في حوالي ساعة وقليل إلى مكة. وكان الظلام مرفوعا غير عاقل. رتبت بسرعة حقيبتي في فندق قريب من الحرم ، ثم خرجت في إحرامي حافيا عاري الرأس ، كأني ذاهب إلى نبع حياتي لتفقد دهشاتي الأولى ، ودفاتري التي دوّن فيها ملكاي ، بإذن ربي مالك الروح ، كل آثامي وخطاياي الخفيفة منها والثقيلة "[30].

وفي بعض الحالات الوجدانية يعبر السارد مناطق نورانية لا يدركها جميع الناس الذين زاروا مكة المكرمة إنها أماكن الحلم الظاهراتي حيث التطهير الروحي والفكري ، وقد عبّر حليفي عنها بالمكان الجسر في كتابه (الرحلة في الأدب العربي) حيث " يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور ، وإنما للتزوّد بالزّاد والمعلومات والحكايات والتجارب ، مما يجعل العبور أخصب مرحلة... وكلما كانت نقط العبور كثيرة حققت للنص ثراء في الحكايات والصور"[31].

إنّ غاية شعيب حليفي من تدوين رحلاته العلمية يدخل في نطاق البحث عن معادل موضوعي لتلازم السفر والمعرفة ، فهما وجهان لورقة واحدة تتعلق بالكشف عن المجهول ، سواء كان الترحال جغرافيا أو تخييليا لذلك تفتقد شخصية الرحّال " لملامح سيكولوجية أو فسيولوجية، فهي شخصية لا تبكي أو تضحك لا هي بالسمينة أو النحيفة، إنها شخصية فكرية تمارس الارتحال عبر حد لها مع العالم المرئي بمكوناته الإنسانية وغير الإنسانية"[32].

لقد وصف حليفي بعض الشخصيات الحقيقية التي صادفها في رحلاته ، وابتكر شخصيات ورقية ساعدته على الحكي التخييلي مثل شخصية سمدونة وعلاقتها بسيد العزيز العاشق ، حيث سمحت علاقتهما الغرامية بكتابة رسائل رافقت الرّحال شعيب حليفي في سفراته المختلفة " هل يمثل سيد العزيز مشكلة هنا؟ أنتما تختلقان شخصية وتريدان منّي أن أعترف بها..أنا لا أعرف هاذ مولاي لعزيز، وإذا أردتما أن أكذب وأقول

إنني أعرفه ورأيته ، فإنّ المخزن ديال الجماهيرية العظمى لن يعترف لكما به. إذن، حتّى سمدونة غير موجودة آبّا عبد السلام، الله يجيبكم على خير. الغربة شربت عقولكم. آش من سمدونة ولا دمدونة. لالة سمدونة هي ولية الله وصالحة من طرابلس ماتت منذ قرون"[33].

تركيب :

لقد قام شعيب حليفي بإنتاج نص رحلي هو أقرب إلى الرحلة الروائية ، أو الرواية الرحلية التي تقوم على اللغة الجمالية التي تمثلها " الأشكال الخالصة في السرد العربي هي المقامة والسيرة والحكاية الشعبية والرحلات ، أما الأشكال الهجينة لا تقوم بذاتها في حين تنفصل الأشكال الخالصة وتتمتع بخواص مشتركة بينها فضلا عن خصائصها النوعية التي يمكن إيجازها في اللغة والأسلوب وهيمنة الفرد البطل ، وخطاب المتخيل الذي يفصح عن تجذر الحكي في الأدب العربي"[34] .حيث اختار شعيب حليفي أبرز المحطات المهمة والمثيرة في رحلاته ، وانتقى من خلالها موضوعات محدّدة مرتبطة بزمان ومكان محدّدين ، أو موضوعات تخييلية مرتبطة بالأنا الإبداعية للكاتب شعيب حليفي الباحث في الرحلة، وتتجلى القيمة الأدبية في رحلاته في طريقة عرضه لمواد مختلفة بأساليب ترتقي إلى مستويات التخييل وتسمو إلى عالم الأدب.

إنّ اهتمام الكاتب الرحلي شعيب حليفي بموضوع العتبات كشكل فاعل في تقديم الأدب الجغرافي بصورة مثيرة لانتباه القارئ الباحث عن المفاجأة والتشويق سواء على مستوى المطالع الحكائية للرحلات المدونة أو على مستوى الهوامش الداخلية للنص الرحلي. إنّ الرحالة الباحثين في علم الجغرافيا يصفون الأمكنة وصفا حقيقيا مقارنة بالأدباء الرحالة الذين ينقلون الجغرافيا إلى أيقونات لغوية كما فعل شعيب حليفي حيث وصف رحلاته.

تستند مرويات الرحلة عند شعيب حليفي على عناصر بلاغية كثيرة تهتم بتوصيل الرسالة الثقافية والاجتماعية والإنسانية وفقا لمرجعيات الرّحال ، حيث يصدر من خلالها السارد أحكاما قيمية تتعلق بنقد الأنظمة الفكرية السائدة في موطن الرحلة، كما يجمع

شعيب حليفي بين مستويات اللغة الجمالية التخييلية ومشاهدات الرؤية البصرية الفعلية للمكان الموصوف وهي عناصر تكوين القصة الرحلية عند هذا الكاتب المغربي المهتم بأدب الرحلة في أعماله النقدية وأبحاثه الأكاديمية ، وهذا الأمر يتيح له فرصة الاهتمام البالغ بالعناصر الأدبية الضرورية لبناء نص رحلي.

قائمة المصادر والمراجع:

1- (حليفي) شعيب. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ". منشورات القلم المغربي.دار القرويين. المغرب.ط1. 2012.

المراجع:

1-(أشهبون) عبد المالك. عتبات الكتابة في الرواية العربية. دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية .سوريا.ط1. 2009.

2-(بلعابد) عبد الحق. عتبات " جيرار جينيت من النص إلى المناص". منشورات الاختلاف. الجزائر. ط1. 2008.

3- (حسين) حسني محمد. أدب الرحلة عند العرب .دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ط2. 1983.

4- (حسين) ،خالد حسين. في نظرية العنوان " مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية". التكوين للتأليف والترجمة والنشر. دمشق.د/ط.2007.

5-(حليفي)، شعيب. الرحلة في الأدب العربي. دار القرويين. الدار البيضاء . المغرب. ط2. 2003.

6- (مؤذن)، عبد الرحيم. أدبية الرحلة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 1996.

7- (مؤذن)، عبد الرحيم. الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر " مستويات السرد ".دار السويدي للنشر والتوزيع . أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2006.

8-(منصر) ،نبيل. الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب.ط1. 2007.

9- (الموافي) ، ناصر عبد الرزاق. أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. دار النشر للجامعات المصرية. مكتبة الوفاء. مصر. ط1. 1995.

10-(نصار)، حسين. أدب الرحلة. الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان . مصر. ط1 .1991.

الإحالات

[1]-حسني محمد حسين. أدب الرحلة عند العرب .دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ط2. 1983. ص9.

[2] -ناصر عبد الرزاق الموافي. أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. دار النشر للجامعات المصرية. مكتبة الوفاء. مصر. ط1. 1995. ص35.

[3] -خالد حسين حسين. في نظرية العنوان " مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية". التكوين للتأليف والترجمة والنشر. دمشق.د/ط.2007.ص303.

[4] -نبيل منصر. الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب.ط1. 2007. ص43-44.

[5] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ". منشورات القلم المغربي. دار القرويين. المغرب.ط1. 2012.ص5.

[6] - عبد الحق بلعابد. عتبات " جيرار جينيت من النص إلى المناص". منشورات الاختلاف. الجزائر. ط1. 2008. ص108.

[7] - ناصر عبد الرزاق الموافي. أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.ص61.
[8] -حسين نصار. أدب الرحلة. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. مصر.ط1. 1991. ص114.
[9] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ". ص7.
[10] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ". ص7.
[11] -عبد المالك أشهبون. عتبات الكتابة في الرواية العربية. دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية .سوريا.ط1. 2009.ص74.
[12] - حسين نصار. أدب الرحلة. ص12.
[13] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ".ص11.
[14]- ناصر عبد الرزاق الموافي. أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. ص73.
[15] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ".ص12.
[16] - المصدر نفسه. ص13.
[17]- المصدر نفسه. ص17.
[18] - المصدر نفسه. ص29.
[19] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال". ص99.
[20] - ناصر عبد الرزاق الموافي. أدب الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. ص65-66.
[21] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال". ص51.
[22] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال".. ص88.
[23] - المصدر نفسه .ص170
[24] -عبد الرحيم مؤذن. الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر " مستويات السرد ".دار السويدي للنشر والتوزيع . أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2006. ص24.
[25] - شعيب حليفي. كتاب الأيام" أسفار لا تخشى الخيال . ص55-56.
[26] - المصدر نفسه .ص56.
[27] -المصدر نفسه- ص58
[28] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ".ص57-58.
[29] - عبد الرحيم مؤذن. أدبية الرحلة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 1996. ص 27.
[30] - شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ". ص 138-139.
[31] - شعيب حليفي. الرحلة في الأدب العربي. دار القرويين. الدار البيضاء . المغرب. ط2. 2003. ص221.
[32] -عبد الرحيم مؤذن. أدبية الرحلة. ص33.
33- شعيب حليفي. كتاب الأيام " أسفار لا تخشى الخيال ".ص24.
34 - شعيب حليفي. الرحلة في الأدب العربي. ص 20-21.

تاريخ الإيداع2014/12/10 تاريخ القبول:2015/05/15